من الفتوة العربية

الشاعر الفارس

ابو محجن الثقفي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

— ١ —

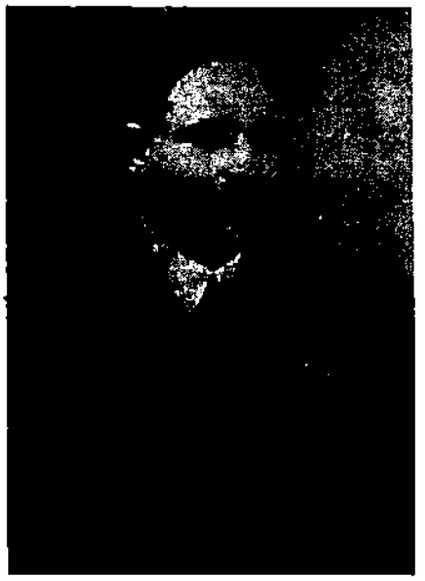

كانت (المدينة) يومئذ عاصمة الإسلام ، وعمر الجبار العادل يحمل بيده القوية مشعل محمد فيرسل أضواءه السماوية إلى الجهات الأربع ، والفرسان المسلمون في القادسية يثلّثون العرش المجوسي ليقيموا على قواعده الكسروية منبر الهدى والسلام . وكانت الجزيرة العربية لا تزال معلقة بين السماء والأرض ، ترفعها الروحية الإسلامية إلى أعلى ، وتجذبها المادية الجاهلية إلى أسفل . وكانت مدن الحجاز الثلاث: مكة والمدينة والطائف مظهر الفتوة العربية، لأنها مجمع السيادة والقوة ، ومنبع الرفاهة والثروة . والفتوة العربية وإن جمعت أطراف المروءة كانت تدور على ثلاثة الشاعر الشاب طَرَفة ، وهي الحب والشرب والحرب ، ثم تصوير كل أولئك بالشعر الغنائي الرقيق . ولم تستطع هوادة الإسلام ولا صرامة عمر أن تكفكفا نوازي الهوى في نفوس نشأت على فتون الجهالة ومرَح الشِّرك ؛ فكان في أبطح مكة ، وعقيق المدينة ، وغزوان الطائف « مساحبُ من جَرِّ الرِّقاق على الثرى » لا تزال معطرة الأديم بمناجاة الحب ، ومطارحة الشعر ، ومناقلة الحديث . وكان وادي العقيق في العاصمة المنورة قلما يفيض دون أن تنتظم على حواشيه الخضر مجالس الشراب وسوامر الأحباب يتساقون في غفلة العيون كؤوس الراح والصبابة ؛ ولكنهم ما كانوا يستطيعون أن يغيبوا عن عيون العَسس[1] ولا أن يفلتوا من يد الخليفة مهما تستروا بالليل وتحصنوا بالبعد

* * *

في صبوة من هذه الصبوات الليلية الجاهلية قبض العسس العُمَري على الشاعر الفارس أبي محجن وهو عائد في نداماه من العقيق يتماوح من السكر وينشد في تطريب وهزّة :

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة تُرَوِّي عظامي بعد موتي عروقها
ولا تدفنني بالفـــلاة فإنني أخاف إذا ما مت ألا أذوقها

وأبو محجن — إن كنت لا تعرفه — رجل من سروات ثقيف، درج في رياض الطائف وكرومه ، ونشأ على فتوة أهله وصبوة شبابه ؛ فهو رضيع كأس، وتبَعُ نساء، ومِسْعر حرب، وصناجة شعر، وصِنو مروءة. أسلم هو وقومه في أخريات الناس حين لم يكن من الإسلام بد ، ودخل في دين الله بما ورث وكسب من عادِ الجاهلية ، فأخذ يروضُ نفسه الصعبة على الوقوف عند حدود الله ، فكان يخفق مراراً وينجح مرة ، حتى أقنعه اليأس آخر الأمر

عشر قرنا ، بل جاءوا يجزون الحسنة بالسيئة ، ويعينون الخطوب على الذين دفعوا عنهم الخطوب ، وينا صرون الأعداء على الذين أنقذوهم من الأعداء ، ويعاقبون الذين دفنوا بيت المقدس على الذين رفعوا عنه التراب والرجس والهوان

وليت شعري ما ذا ينقمون من المسلمين والعرب ؟

« يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم » ؟

« يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، وأوفوا بعهدي أوفِ بعهدكم وإياي فارهبون »

عبد الوهاب عزام

(١) العسس : شرطة الليل يحرسون الناس ويكشفون أهل الريبة

أن لا بأس من الشراب ما دام يطهره الحد[1]، وأن لا ضير من الحب ما دامت تحصنه التوبة !

على ذلك عشق (شموس) الأنصارية وركب إلى رؤيتها المحظورة شيطانه المحتال ، فتزيا بزى فلاح وعمل أجيراً فى بستان يطل على دارها ، فكان ينعم بالنظر والسمع ، وربما تمتع بالسلام والحديث ، ثم يعود فيسلسل الماء بين البقول والزهور ويتغنى بمثل قوله :

ولقد نظرت إلى شموس ودونها حرَجٌ من الرحمن غير قليل

وعلى ذلك أيضاً كان يتتبع هو ونداماه رياض الأرض ، يشربون ويطربون ثم يرجعون إلى المدينة نشاوى من القصف والعزف فلا تنم عليهم عين ولا يشى بهم لسان ، حتى وَلى الخلافة الفاروق فطارد الجريمة فى كل مكان ، وهاجم الرذيلة فى كل مكمن

— ٢ —

دخل العسس بأبى محجن وندمائه على عمر ، فسألهم :

— أشربتم الخمر بعد أن حرمها الله ؟

فأجابه لسان القوم أبو محجن :

— كيف حرمها الله يا أمير المؤمنين وهو يقول : ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ؟

فوقف صاحب رسالة القضاء من حجة الشاعر موقف الحائر ؛ ثم التفت إلى من حوله من صحابة الرسول يستمد رأيهم فى الأمر فاختلفوا فيه . فأرسل إلى علىّ مرجع الفتوى وفيصل الحكم يستشيره ، فقال : « إن كانت هذه الآية كما يقولون فينبغى أن يستحلوا الميتة والدم ولحم الخنزير . وأرى إن كانوا قد شربوا الخمر مستحلين أن يقتلوا ، وإن كانوا شربوها مستحرمين أن يُحدُّوا . فسألهم عمر ، فقالوا : والله ما شككنا فى أنها حرام ، ولكنا قدّرنا أن لنا فيما قال نجاة . فجعل يجلدهم رجلاً رجلاً حتى انتهى إلى أبى محجن ، فلما جلده جعل يقول :

وإنى لذو صبر وقد مات إخوتى ولست من الصهباء يوماً بصابر

رماها أمير المؤمنين بحتفها فخلانها يبكون حول المعاصر

فقال له عمر : قد أبديت ما فى نفسك ، ولأزيدنك عقوبة لإصرارك . فقال الإمام علىّ حجة القضاء وولى العدل :

— ما ذلك لك يا عمر . وما يجوز أن تعاقب رجلاً قال لأفعلن وهو لم يفعل . وقد قال الله فى الشعراء : وأنهم يقولون ما لا يفعلون . فقال عمر : إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فقال على : أهؤلاء عندك منهم ؟ لقد سمعت الرسول (ص) يقول : لا يشرب الخمر شاربها وهو مؤمن .

نجا أبو محجن وما نجا . فإنه أصر على ألا يترك الخمر مخافة العقوبة ، وأصرّ عمر على أن يجلده كلما شرب ، حتى أعيا الخليفة أمره وأعجزه صلاحه ، فقرر أن ينفيه إلى جزيرة كان ينفى فيها الخلعاء ، ووكل به شُرَطياً يصحبه إلى المنفى وأوصاه ألا يدع معه السيف فإنه كميٌّ فاتك . وعلم أبو محجن بالحكم والوصية ، فتزود بغرارتين ملئتا دقيقاً ، ثم عمد إلى سيفه فجعل نصله فى غرارة ، وغمده فى غرارة . فلما بلغ هو والشرطى ساحل البحر قعدا للغداء ، وفتح الغرارة يوهم أنه يخرج الدقيق ولكنه أخرج السيف ! فلم يكد الشرطى يراه فى يده حتى انطلق يعدو إلى بعيره فنجا به إلى المدينة بعد لأى .

وقال الشاعر لنفسه بعد تفكير وتدبير وعزم : لا ينبغى أن يكون الفر من عمر فى الحجاز إلا إلى سعد فى العراق

— ٣ —

وفد أبو محجن على فاتح العراق سعد بن أبى وقاص يوم الكتائب من أيام القادسية ؛ وكان سعد قد تلقى من أمير المؤمنين الساهر اليقظ كتاباً يأمره فيه بحبس الشاعر ساعة يفد . ودارت رحى الحرب بين العرب والفرس وأبو محجن مقيد فى قصر القائد ، فما كاد يسمع وغاها حتى عصفت النخوة فى رأسه ، وثارت الحمية فى نفسه ، واضطرب فى حبسه اضطراب الأسد فى قفصه . ثم زأر بهذه الأبيات على مسمع من سلمى زوج سعد :

كفى حزناً أن تطعن الخيل بالقنا وأترك مشدوداً علىّ وثاقيا

(١) الحد : عقوبة الجلد المقررة على الشارب

إذا قمت عنّاني الحديد وغُلّقت ... مصاريع من دوني تُصم المناديا
هلم سلاحي لا أبالك إنني ... أرى الحرب لا تزداد إلا تماديا
ولله عهدٌ لا أخيس[1] بعهده ... لئن فرجت ألا أزور الحوانيا[2]

ثم قال يا سلمى : هل لك من خبر إلى ؟ فقالت : وما ذاك ؟ قال : تخلين عني وتعيرينني البلقاء فرس سعد ، ولله عليّ إن سلمتُ أن أرجع حتى تضعي رجليّ في القيد . فترددت سلمى حتى تبينت الصدق في قوله فأطلقته . وركب أبو محجن البلقاء ثم دب عليها ؛ حتى إذا تنفس الصبح وأشرق يوم أرماث واصطف الناس ، حمل على ميسرة العدو حملة صادقة فانخلعت لها القلوب ، وانخرعت منها الفيلة ، وتضعضعت أمامها الفرس . وعجب العرب أن يكون فيهم هذا الفارس ولا يعرفونه ، حتى قال أحدهم : إن كان الخضر يشهد الحرب فهو صاحب البلقاء . وقال آخر : لولا أن الملائكة لا يقاتلون ظاهرين لقلنا هذا ملك . وجعل سعد يقول وهو يشرف على المعركة: الطعن طعن أبي محجن، والضرب[3] ضرب البلقاء ، ولولا محبسه لقلت إنه هو !

وانتصف الليل فتحاجز العسكران ؛ وأقبل أبو محجن حتى دخل القصر ووضع رجليه في القيد !

وكانت سلمى قد رأت فعله وسمعت قوله فأعجبت بإبائه ووفائه وبطولته. ثم دخلت على سعد وكانت مغاضبة له ، فصالحته وأخبرته بخبر أبي محجن ، وسألته أن يطلقه . فاستخف سعداً ما رأى من فتوة أبي محجن ورضا زوجه ، فدعاه وقال له وهو لا يزال في حماسة الإعجاب ونشوة الغبطة : والله لا أحبس بعد اليوم رجلاً نصر الله المسلمين على يديه هذا النصر ، ولا أعاقبه إذا شرب . فقال له أبو محجن وقد بدت على محياه سِماتُ النبل ودلائل المروءة :

— وأنا والله لن أذوقها بعد الساعة . لقد كنت أشربها أنفةً من أن يقولوا خاف الحد ، فأنا اليوم أتركها رغبة في أن يقولوا خاف الله !

احمد حسن الزيات

(١) خاس بالعهد : نكث
(٢) حوانيت الخمر
(٣) ضبر الفرس : جمع قوائمه ووثب

المرأة في شباب الرسول

للأستاذ توفيق الحكيم

لم يرو لنا التاريخ أن النبي عرف امرأة أو تحرك قلبه لامرأة قبل خديجة. فلقد كانت حياته حتى الخامسة والعشرين حياة الشاب الهادئ البعيد عن النساء ، العاكف على عمله ، يرعى الغنم في الفلاة ويلجأ إلى التأمل العميق . فلم يكن للهو والمرأة حتى ذلك الوقت مكان من اهتمامه أو تفكيره . كل ما ورد مع ذلك من أخبار لهو الشباب أنه قال ذات ليلة لفتى من قريش كان معه بأعلى مكة يرعيان غنم أهلها : « أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان » . ثم خرج . فلما جاء أدنى دار من دور مكة سمع غناء وصوت دفوف ومزامير ، فجلس يلهو بذلك الصوت حتى غلبه النعاس فنام في مكانه ولم يوقظه إلا مس الشمس. فرجع إلى صاحبه فسأله: « ما فعلت؟ » فأخبره بما كان . وكان هذا شأنه في كل ليلة من مثل هذه الليالي

كانت العفة المطلقة إذن هي صفته الغالبة ؛ وكان الزهد والحلم والصبر والتواضع ما ميزه عن بقية الشبان ، وما جعل قومه يسمونه « الأمين » .

ما الذي كان يشغل رأس الشاب محمد في تلك السن ما دام اللهو والمرأة لا محل لهما عنده ؟ أتراه كان يحس في قرارة نفسه بمصيره العظيم ؟ نعم .